ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """""دار الطالب """"بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي

تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منا 1978

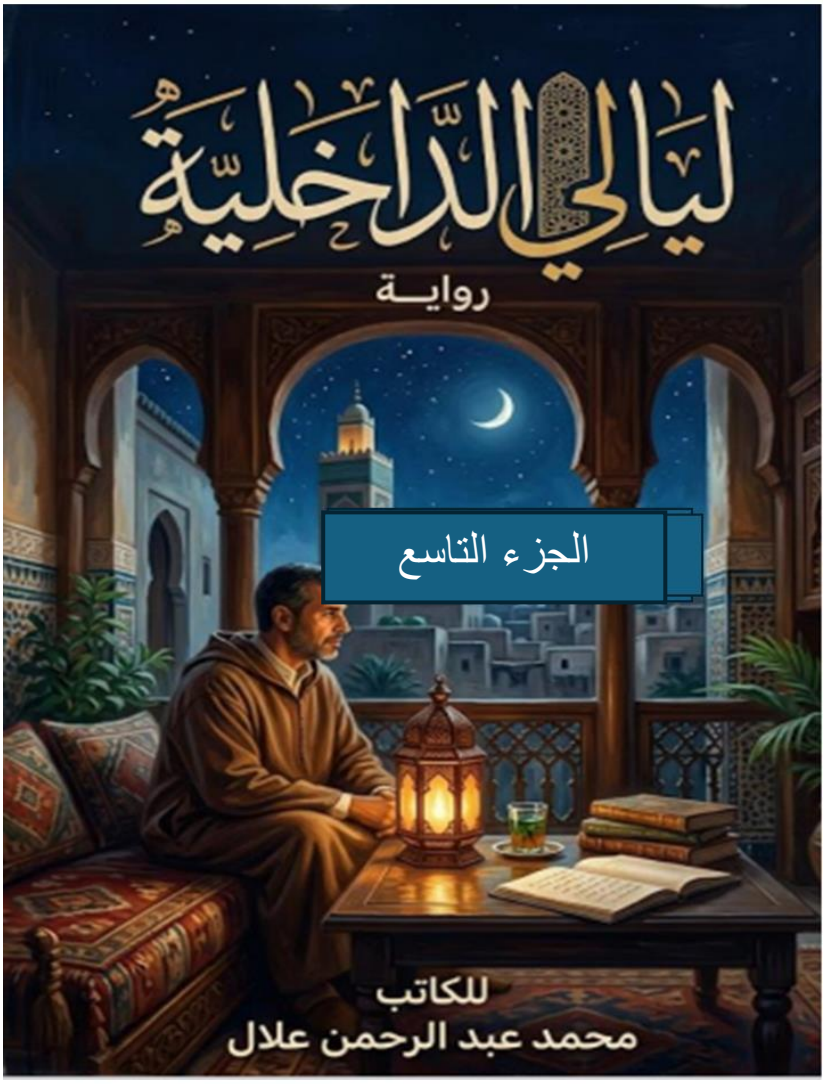

ظل يجمح بقوة الى زيارة الوادي ،حيث الماء الصافي والنخلات ذوات العرجون المثمر اليانعة تمراته . حيث السمكات تنشد مع الرمال الناعمة نشيد الوطن الغالي .اعترته حسرة وغصة حين أخبره شباح العرب -أحد معارف أبيه وكانت له قصة أخرى وتأثير في حياته لدرجة كبيرة- اخبره أنه أصبح ممنوعا النزول الى الوادي ،وادي سسفانة .لم يفهم السبب أول الامر ، لكن الامر تجلى بينا حين شرعت بعض الطائرات الحربية تخترق سماء المدينة معتدية . قدمت من وراء الحدود ،من الجزائر.

دارت الأيام في دار الطالب رتيبة نهارها كليلها.دخول وخروج واستراحة خانقة على أَسِرّة جافة تحت المراقبة .وجبات أكل بالأبيض والأسود كمّا وكيْفا .بعد العشاء ، يجمع السمر الطلاب ليل السبت .يسهرون وفي الغد عطلة يوم الأحد .يومها ،سيسمح لهم بالنوم حتى وقت متقدم من النهار .صباحها ،لن يأتي سي ""العربي"" ليوقظهم بألحانه العذبة . بعد تناول وجبة العشاء ،يجتمع الطلاب الى

سرير أحد زملائهم من النزلاء ،ممن حانت نوبته في الحكي ، يفسح المجال لاستلقاء أكبر عدد منهم على السرير. قد يستلقي أحدهم على اليمين والأخر على اليسار ورجله تتدلى الى أسفل .منهم من يأخذ موضعه بجانب قدمي الحاكي .من يسند إليه الحكي خلال ذلك السمر عليه التحمل ،ألا يضجر إذا ضاق به المكان .فهو بطل تلك الليلة . يحكي، ترافقه أضواء مصابيح محطة الطاقة المجاورة للدار تخترق النوافذ الزجاجية المستطلة الشكل التي كانت تملا الغرفة .يحكي على إيقاع صوت المحرك الرتيب –قد يحكي عن لونجا ،اوعن مغامرات حاكم في بلاد بعيدة . قد يحكي عن حسناء في محنة ينقذها بطل من صنع خياله .قد يبتكر حكاية من خياله يتصنع فيها الأحداث ، يسردها طويلة ملتوية عميقة المعاني .قد يحكي عن معاناة أمه أو أبيه أو صراع في أسرته أو بين أقاربه .يحكي ولسان حال هؤلاء يقول :إوا . زِدْ، زد "" فيجد الحاكي في ابتكاره ويتعمق أكثر في خياله مستخرجا صورا مخيفة محزنة تارة

،وأخرى مطمئنة سارة . يمر الليل وقد نام بعضهم على سرير محدثهم .ينصرف البقية من تلقاء أنفسهم بعد أن أحسوا التعب والْتفَّ النعاس يغشى أعينهم .ينهي الحاكي حكايته والليل قد تجاوز منتصفه .يوقظ النائمين يدعوهم الى المغادرة .يفتحون أفواههم متثائبين من شدة ما غلبهم النعاس و يغادرون .أثناء ذلك السمر ،ومن بعيد عبر ثنايا الأسِرة والأغطية ،ينبعث صوت مذياع هناك .تشق موسيقاه المسافة لتصل ضعيفة الى الذين جفا النوم عيونهم. همس في مكان ما يكسر سكون الليل .تبدو بعض الأسرة فارغة قد فارقها أصحابها ممن خرجوا الى ساحة الدار يمضون الليل تجمعهم أحاديث المعاناة والجوع والسجائر الحائرة. يقترب الصبح يطرد الظلام قليلا قليلا ،ينسحب الجميع الى داخل الغرفة ثم يخلدون لنوم عميق ثم يسمع صوت الآذان يرتفع في المآذن القريبة .

يطلع النهار بشمسه المنيرة ،فينطلق الطلاب الى الساقية القريبة يحملون ملابسهم الموسخة لتنظيفها وقد تناولوا كأس القهوة المعتاد مع قطعة خبز محلاة

بمربى المشمش . هناك في تلك الساقية تنتشر في جوانبها النخلات سامقة يتلألأ بريق اخضرار جريدها عندما يلامس شعاع الشمس الدافئ .هناك ،كان تيمح يستحضر التاريخ وهو يتأمل برج المراقبة القديم منتصبا شامخا صامدا بالطين والحجر أمام الزمان وتقلبات المناخ .كانت صورة سي عمارة وسي بنعلي ماثلة بين عينيه وهو يتأمل ذلك البرج.برج من مواد بسيطة يقاوم في ثبات. به سقف من بضع خشبات سميكة أسطوانية الشكل .على جانبيه فتحتان بمثابة نافذتين لم يمحهما القِدَمُ ولا الطقس أمطاره ورياحه وعواصفه الهوجاء . في ذلك اليوم وهم منهمكون يغسلون ملابسهم في سكون رهيب .ما يُمع سوى صوت فرك الملابس وصوت الماء يغني شوقا الى المستقبل ،ترك أحد الطلاب ملابسة واتجه صوب قنينة فارغة لمنظف كان يسمى آنذاك ""جافيل لاكروا""حمل الشاب القنينة المنتفخة مقتربا من جموع زملائه ،قفز الى أعلى بجسده ثم نزل على القنينة بكل ثقله .لم تحتمل القنينة الضغط ووزن الجسم

فانفجرت محدثة صوتا مرعبا .نظر الشاب يمنة ويسرة والى كل اتجاه فلم يجد أحدا خلا الملابس تحملها مياه الساقية الى المجهول .لقد فر الجميع .هرب الجميع وهم يظنون أن قوة جزائرية قد اقتحمت الحدود وشرعت تلقي القنابل على السكان العزل .كانت اعتداءات الجزائريين على الأراضي المغربية تتكرر باستمرار في فجيج .صار الشاب ينادي ضاحكا مقهقها "" رواحو رْوَاحُو" إنها مجرد قنينة ،إنها مجرد قنينة جافيل "عاد الطلاب وانطلق بعضهم يسرع للحاق بملابسه التي جرفتها ميته الساقية بعيدا .قال الشاب مخاطبا زملاءه"" انها مجرد قنينة وقد أرعبتكم ،فكيف إن قامت الحرب ,أهكذا يكون المدافعون عن الوطن؟"" خاطبه أحد العقلاء من الحاضرين يقوا ""أنا أسرعت آخذ مكاني بالبرج تحسبا لأي طارئ.""قال آخر ساخرا""راك طيرت مني حجلة ،حسبتها قنبلة"" نشرت الملابس في كل مكان بعد ذلك الحادث المفاجئ .حان وقت الرحيل .حان موعد الغذاء .يجب على الجميع جمع حوائجهم

والالتحاق بالداخلية والا حرموا من وجبة ذلك اليوم الى الأبد .

لم يكن حديث الطلاب ذلك اليوم وهم حول مائدة الكسكس الا حول ذلك الموقف. .في ساحة الدار وفي قاعة النوم ،ملاسنات لحد الاشتباك بين من تسبب فيه وهؤلاء الذين نعتهم ب""الخوافة"" وهم الجبناء بالمفهوم الرجولي آنذاك .بين من يقول ""كان خصك تبقى واقف راجل متهربش"" ومن يرد عليه ""انا مشي خواف ،انا هربت بش ندخل في المعركة نيشان "" تجلى الحس الوطني واضحا في تلك السجالات الحادة .ربما كان ذلك ارهاصات على تنامي الفكر السياسي في مراحله الابتدائية لدى هؤلاء النزلاء وهم يخوضون أثناء اجتماعاتهم في بهر الدار في أسباب الصراع المغربي الجزائري وتبعاته .في الحديث عن المسيرة الخضراء ،عن محكمة العدل الدولية .عن المبعدين المغاربة من الدولة الجارة قسرا .

لقد ""لقد بلغ الآن مستوى الثالثة ثانوي بمؤسسة سيدي عبدالجبار بفجيج وسنة 1976توشك على مغادرة قطار الزمن

.الان هو بين يدي اساتذة افذاذ .اصبح
قاب قوسين او ادنى من بلوغ الرابعة
ثانوي ""البروفي""كما كان يطلق عليها
انذاك .كان ينظر الى ""سي زايد الطيب
""وسي ""علي جي ""و""سي
مكاوي"وسي العربي الكوش "قامات في
القمة ،عليه ان يتسلق شجرة الجد حتى
يبلغ تلك الاغصان المورقة الغضة وينالـه
قسط من ثمارها الطيبة .عليه أن يستعد
لبلوغ ذلك المقام الرفيع بمفهوم ذلك
الزمان .ظل يستمع الى حديث الطلاب
عنهم ،تنتابه احيانا خشية ورهبة منهم
،وأحيانا شوق الى معانقة حلقاتهم
الدراسية .لم يكن بدار الطالب ولا حتى
في مدينة فجيج ،بل ولا حتى في المدينة
التي تستقر بها أسرته وسائل اتصال
مرئية .كان التلفاز إبان ذلك التاريخ في
عقله مجرد فكرة .كان مولعا جدا
بالمذياع .يتابع برامج الإذاعة الوطنية
وبرامج "البيبيسي الدولية ""يسمع صوت
ساعة ""بيغ بن"" عند الواحدة ظهرا من
كل يوم .يستمع الى منبه الساعة على
الإذاعة الوطنية "عند الإشارة تكون

الساعة """".يتابع الأخبار أولا بأول دأبه
في ذلك ما كان عليه ف ي قريته ايش .
حين حل الموسم الدراسي الجديد ،كان
على موعد جديد مع دار الطالب .بدا
وكأن الناس في المدينة يتأهبون لأمر ما
،أمر جلل لا غبار عليه ..لم يكن احد
يعرف ما الذي سيحدث .لم يتوقف تيمح
عن اقتناء الجرائد على اختلافها
واختلاف اللغات المكتوبة بها . كان
المذياع عند بعض النزلاء ممن كانوا قد
بلغوا درجة من الوعي -ساعدهم على
ذلك اختراقهم لحياة بعض الاساتذة حين
صاحبوهم في غفلة من تيمح وباقي
الطلاب -كان المذياع هناك وعند دكان
أسرة ""باحي""وقد أخذ له مكانا على
الشارع العام ،دكان عامر اختلفت فيه
البضائع حتى زهت أشكالا وألوانا .كان
صاحبه أسمر اللون ،طويل القامة .لا
تفارق ابتسامته العريضة وجهه .لباسه
معطف بني وسروال أسود على مقاسه
تماما.كان المذياع هناك ينقل أخبارا عن
تحركات مغربية لاسترجاع صحرائه من
قبضة الاسبان .لم يمض وقت طويل حتى

كانت الساحة قبالة قيادة فجيج مليئة
بالناس ،كبارا وصغارا ،رجالا ونساء.
قدموا من قصور المدينة العامرة .تحملوا
مشاق السير راجلين أو على عرباتهم من
قصور زناقة ولوداغير والحمامين
التحتاني والفوقاني وغيرها من القصور
،تجمعوا منذ المساء فملأوا تلك الساحة
منتظرين حدثا ما .لم يكن تيمح يعرف ما
الحدث ولماذا تجمع الناس هناك .كان
يتجول مع الأصحاب .ينتقلون عبر
أرجاء الشارع تشغف مسامعم موسقى
وأغاني وطنية لا تنقطع. موسيقى تهتز
لها الأركان حماسة .علقت الأعلام
الوطنية على كثير من المباني وما زال
يجهل يعرف السبب .انتشر أفراد من
القوات المساعدة ورجال الشرطة
ينظمون حركة الناس والعربات
ويضبطون ايقاع ذلك التجمع المثثير .حل
الليل وحل معه موعد الخطاب الملكي
،فجأة عم صمت رهيب الساحة .سكن
الليل وسكن معه كل شيء ؛يحسب من
كان على ارضيتها أن الجميع غادروها
دون ضجيج .توقف المذياع عن بث

الأغاني الحماسية.وها هو صوت الملك
يشق ذلك السكون """"الحمد لله ،والصلاة
والسلام على رسول الله واله وصحبه
،شعبي العزيز ...."""اعلنت المسيرة
الخضراء في ذلك الليل الجميل بفجيج
.ساد الهدوء طيلة مدة الخطاب ،فجأة
،سمع تيمح أصوات زغاريد من هنا ومن
هناك تملأ كل الساحات .تنبعث من الدور
المجاورة .القى بمقلتيه ،يتفحص الساحة
،كان المشهد أخاذا . شيب وشباب
يتبادلون الحديث حول ما استجد في
الخطاب ,كانت بعض الاصوات مرتفعة
.قال احدهم ملخصا كل شيء ""سينظم
المغرب مسيرة خضراء لاسترجاع
الصحراء ""كلمات فتحت امام تيمح نوافذ
الشغف الى معرفة المزيد ،الى الانفتاح
اكثر على التاريخ...."""انصرفنا من
المكان """"يقول تيمح """"دخلنا دار
الطالب متأخرين على غير عادتنا
.فالمناسبة كبيرة وعظيمة. دخلنا قاعة
الاطعام وليس في افواه الطلاب سوى ما
جاء به الخطاب الملكي .حديث على تلك
المائدة يغطي عليه آخر على تلك هناك

في عمق القاعة العريضة .انصرف
العديد من الطلاب الى أسِرَّتِهم .عم
الصمت الدار في انتظار صباح جديد
بحدث جديد اسمه المسيرة الخضراء
المظفرة